المحاضرة الرابعة: دواعي ومغازي الفن

أهداف المحاضرة 04

- **الكشف عن دواعي الفن**
- **تحديد مغازي الفن**

1- دواعي الفن:

صنع الإنسان الكثير من الأشياء ولأغراض جمة، وتخدم بعض الإبداعات متطلبات عملية واضحة، فالناس على سبيل المثال، في حاجة دائمة للأدوات لممارسة أعمال مثل القطع أو الحفر أو القتل أو الأكل، غير أن الناس بمختلف حضاراتهم وثقافاتهم يشعرون بحاجتهم الماسة لأشياء أخرى أقل وضوحا من تلك الأشياء، فهم أولا يرغبون فعل شيء يوحي إليهم بالرضا بطريقة خاصة، أي شيء يستحق التأمل أو الاستماع، وهم ثانيا يريدون صنع شيء يذكر الآخرين بأشياء معينة تستحق التذكر، ويسمى هذان الدافعان الاهتمام بالشكل والاهتمام التذكاري.

1-1- الاهتمام بالشكل: أبدى الناس، أينما عاشوا، اهتماما بالترتيب دوما، فهم يستمتعون بأنماط معينة من التباين والتوازن. ولقد نحت الناس في عصور ما قبل التاريخ قبضات سكاكين الصيد بأشكال جميلة تبعث البهجة، كما عمدوا لترتيب الأشياء في بيوتهم بأنماط منتظمة، تماما كما نفعل الآن في بعض الأحيان، فنحن نسعد ونهتم بأشكال وطرز الملابس التي نلبسها، أو المجوهرات التي ترتديها نساؤنا، أو بطريقة تشذيب العشب في حدائقنا، أو استخدام أدوات الزينة لتزيين سياراتنا، ولا ينصب اهتمامنا في هذه الحالة، أو لا ينصب بشكل خاص، على تأمين أمور عملية، مثل تأمين الدفء، أو الحماية أو الفعالية، بل إن ما يهمنا بشكل أساسي هو أن نصنع الأشياء على أجمل وجه ممكن.

2-1- الاهتمام التذكاري: تأخذ بعض الأحداث والأفكار مكان الصدارة في حياتنا، وقد استخدم الإنسان منذ أقدم العصور رموزا شكلية أو احتفالات لتخليد مثل تلك الأحداث، أو للإبقاء على مثل تلك الأفكار، فقد لجأ الوثنيون القدماء إلى استخدام الرقص والطقوس مثلا، أملا في تأكيد نجاح مواسم بذر البذور وحصاد المحصول، أو مواسم الصيد والحرب.

وجسد الإغريق القدماء سمات إنسانية معينة مثل الشجاعة والقوة والجمال في تمثيل آلهتهم، ونحن نلجأ إلى إلقاء الخطب والغناء والمرح في حفلات الزواج في وقتنا الحاضر، وبتعبير آخر فإننا نعطي المناسبة شكلا معينا، كي نتذكرها، أي نحتفل بالمناسبة لكي نزيد من إحساسنا بأهميته.

2- مغازي الفن:

تأتي الأعمال الفنية نتيجة التقاء الاهتمام بالشكل والتذكار، فهذه الأعمال ترضي اهتمامنا بالشكل، وتذكرنا في الوقت نفسه بشيء نعده قيما.

ولكننا حين ندخل في تجربة العمل الفني، فإننا لا نشعر برغبتين منفصلتين، بل تلتحمان معا، لتبدعا تجربة خاصة نخوض غمارها، اعتاد المختصون تسميتها بالتجربة الجمالية.

فالملحمة اليونانية الأوديسة تثير لدينا الرغبتين معا، فهي ليست مجرد قصة تتناول المشاكل الأساسية للإنسان، ودراسة عن قدرة الإنسان على التكيف والابتكار، بل هي أيضا قصة تروى بحذق وبطريقة مشوقة تصل بها إلى مستوى الذروة، أو بعبارة أخرى فإن الشكل يعزز ويدعم من الأشكال والألوان، بل فيها حيوية متألقة تظل باقية في أذهاننا رمزا لتفجر الطبيعة بالحياة.

وقد تتباين الأعمال الفنية، إلى حد بعيد، في درجة جمعها بين الاهتمام بالشكل والاهتمام التذكاري.

ففي الجانب الأقصى من المعادلة مثلا تعالج مسرحيات شكسبير المأساوية مواقف إنسانية أساسية، وتحرك أعماقنا، وتشدنا مرة بعد أخرى ونحن نكتشف أدق المعاني وأكثرها تعقيدا

في هذه المسرحيات، وفي الطرف الآخر من المعادلة، حيث يكون الاهتمام التذكاري في أدنى مستوياته، نجد لوحات ومنحوتات شديدة التجريد، ويشمل ذلك لوحات بيكاسو ولوحة كونستانتين برانكوسي التكعيبية طائر في الفضاء.

ويسيطر عنصر الاهتمام بالشكل على الأنغام ومزج الألحان في موسيقى سباستيان باخ التي تحمل اسم المقدمات، وفي موسيقى الحجرة لهايدن.

وهذا ينطبق أيضا على الأنماط الشكلية للباليه التقليدي، أو الأنماط الأكثر تحررا من الرقص الحديث، فمثل هذه الأعمال لا تعد وسيلة للتعبير عن موضوعات ذات أهمية.

غير أن بعض الخبراء يجادلون ويقولون إن هناك لمحات من عنصر التذكر في هذه الفنون، وقد نلمح بعض سمات الحيوية والرشاقة والقوة، حتى في الرسم التجريدي.

فلوحة طائر في الفضاء لا تمثل طائرا في الواقع بل تعبر بعض الشيء عن التحليق السريع للطائر، أما مقطوعة المقدمات والرقصات ففيها لمحات من القوة والسعادة والمرح التي نجدها في الحياة البشرية، وهي جديرة بالاعتبار.

1-2- الجمال والمغزى: يحاول بعض المختصين وصف عنصري الاهتمام أحيانا بأنهما عنصرا الجمال والمغزى، ويعرفون عنصر الشكل بأنه الرغبة في صنع الأشياء الجميلة والاستمتاع بها، إلا أن آخرين ممن يركزون على العنصر الفكري في الفن، يفضلون استعمال كلمة الجمال بمعناها الأوسع، وهم يقولون: إن التلبية المرضية لعنصر الشكل في طراز العمل الفني في حد ذاته، وشدة العنصر التذكاري، يسهمان كلاهما في تأكيد الناحية الجمالية فيه.

2-2- الجمال والمنفعة: الجمال، حتى بمعناه الأوسع، منفصل عن الفائدة، فهناك أنواع معينة من الأعمال الفنية، مثل الرسم والموسيقى، لا تعتبر مجدية، أو هي قليلة الجدوى من الناحية العملية، باستثناء قيمتها بوصفها أعمالا فنية فحسب.

وعلى الرغم من أنه يمكننا أن نستخدم شكلا منحوتا لإسناد باب، إلا أن استخدامه الأساسي يأتي لكونه عملا من أعمال النحت أولا، وهناك قطع أخرى مثل المقاعد أو الأكواب تصمم لتحقيق مهمات معينة، غير أنها لا تعدو مجرد كونها قطعا فنية، وقد تعرض في المتاحف إذا كانت تثير انفعالا جماليا.